شاعرية النساء في مواجهة العنف : "التبراع نموذجا"

1) الإطار النظري العام للموضوع :

إن المتابع لمسيرة "الشعر النسائي" سيلاحظ أن المرأة قد لعبت - كموضوع - دورا لا يستهان به في الرقي بالشعر عموما ولكنه قد يتجاهل أو يتناسى الدور النسائي في النهوض بالشاعرية والشعر عموما من خلال ممارسة الشعر. وهو أمر ينسحب على باقي أنواع الفنون.

فليس هناك قلة إنتاج من طرف المرأة للشعر، أو تراجع في عطائها الشعري والأدبي والذي غالبا ما يتم تعليله بطبيعتها الأنثوية التي يعتمد كتفسير في جعلها تعبر عن مشاعرها بصمت وبسبب العادات والتقاليد والأعراف التي يفرضها عليها مجتمعها. وهكذا نلاحظ في فضاءاتنا المجتمعية أنه لم يكن يسمح لها بحضور المحافل الشعرية، ناهيك عن حرمانها من التعليم تحت مختلف الذرائع الموضوعية والذاتية، وقلة اهتمام دور النشر والطباعة بإنتاجها الشعري، إلا أنها استطاعت أن تخترق الحواجز والمعوقات بامتلاكها للغة واستغلالها لفضاءات تواجدها وكذلك مع تطور التعليم، والنمو الثقافي والمعرفي، وتطور وسائل الاتصال. و بهذا استطاعت اقتحام دروب التعبير بمختلف أنواعه وتطوير أساليب خاصة بها كالرمز والأسطورة والنثر الشعري والأسلوب السوريالي، وأظهرت جرأة على خوض موضوعات كانت محرّمة سواء على أفراد المجتمع جميعا أو على النساء دون غيرهن، مما أهّلها للثورة على تزييف الحب وانتحاله، والرغبة في تحطيم تقاليد العنف والثأر، وقيود الأوهام والأضاليل.

ففي شعر المرأة الذي وصلنا والممارسات التي تمت استدامتها إلى يومنا هذا تحدّ، ورفض للتسلط، والجبروت، والظلم، والإهانة، والإقصاء، والهشاشة، والدونية، والنظر إلى المرأة كقاصر، واختزال الأنوثة في تراتبية ذكورية يكون الرجل فيها هو المرجع[1] لدرجة أننا نجد أمثلة تشير إلى قوة المرأة، وصلابتها، وصمودها، ووفائها بالتزاماتها، إلى أنها "رجل" من خلال إضفاء صبغة ذكورية عليها، كما تشير إلى ذلك بعض الأمثلة المغربية من قبيل : امرأة في عوض رجل (أي امرأة تقوم مقام رجل) أو امرأة ونصف (أي بما أنها نصف الذكر كما يعرّفها المجتمع الذكوري فإن إضافة النصف الثاني اكتمال لشخصيتها حتى تساوي الرجل باعتباره المرجع في الأهلية الاجتماعية والقانونية) ...

ولهذا فإن غالبية الشعر النسائي حنين إلى عالم مثالي بريء من الحقد، والطمع، والبؤس، والظلم، وسائر ألوان العبودية والقهر ... وكذلك نجد في هذا النوع من الشعر خواطر فلسفية، ونفحات إنسانية صوفية، تتغنى بالحياة، وتدعو إلى المحبة والإخاء؛ كل هذا أعطى ويعطي للنص الشعري زخما وجدانيا، ودفقا عاطفيا أكثر جرأة وأدق تصويرا، وأكثر صفاءاً. مما يجعله أكثر عمقا مع احتفاظه ببساطة مربِكة وصعبة الصَّنعة مع تميز في المضمون وفي التعبير.

إن هذا الوضع ينطبق على العديد من أنواع الشعر النسائي والممارسات الغنائية النسائية ففي العديد من المجتمعات ومختلف العصور. ويمكن أن نذكر من بينها على سبيل المثال لا الحصر :

---

[1] راجع في هذا الصدد رواية إلفريد إلينيك Elfriede Jelinek الحاصلة على جائزة نوبل في الأدب لسنة 2004 والتي تحمل عنوان Lust والمترجمة عن الألمانية تحت عنوان "العاشقات". وقد صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 2006. فهذه الرواية جاءت كمشروع روائي مضاد لرواية Histoire de l'oeil جورج بَتّاي Georges Bataille المترجمة عن الفرنسية تحت عنوان "عين القط". وقد صدرت عن دار الجمل، مكتبة الفكر الجديد، سنة 2001. والتي حاولت فيها أن تعرّي على الهيمنة الأبيسية مع الإشارة إلى أنه ليس هناك لغة أنثوية خاصة حول اللذة والمتعة.

- الشاعرات الغنائيات المعروفات تحت اسم التروبايريتز trobairitz (منذ القرن 14)، وهن نوع من الشاعرات اللواتي برعن في فن الشعر الطَّـرَبي (هناك من يرى أن صفة Troubadour والتي أصلها من المفردة القديمة Trobar مشتقة من المفردة العربية "طَرَب"[2]). وهو فن كان في بدايته يؤدَّى بالبلاطات لجمهور النبلاء خاصة بالأوكيتانية occitane ثم تحول بعد ذلك إلى شعر للطبقات الدنيا يؤديه الفنانون الجوّالون. وهو أنواع حيث تغنّى هذا الفن في بداياته بموضوعات الحب المهذّب (أو العذري) الذي هو حب صعب المنال والتحقيق كما تم التعبير عن ذلك في الأغاني Cansos ... إلى جانب قصائد النقد اللاذع (أو الهجاء) Sirvente. وتميز هذا الشعر بخصائص في معمار قصائده؛ حيث كان للنساء في هذا الشعر خصوصيات أضفنها كإبداع مغاير للشاعرية الرجالية/الرجولية (أو الذكورة/الذكورية)[3].
- الفادو Le fado الذي أصبح أيقونة البرتغال، وصوت شعب بأكمله بفضل فنانين مثل آماليا رودريغز Amalia Rodrigues، وماريزا Mariza ... ظهر فيها حوالي سنة (1820). وحسب بعض علماء الموسيقى، فإن الفادو، كنمط غنائي شعبي موضوعه اللوعة والشوق وعذاب الحب، وجد أصله في البرازيل حيث الإيقاعات السوداوية المستوردة من قِبَل العبيد الأفارقة مختلطة مع الموديناها modinha (نوع من الإيقاعات الموسيقية لأغاني صالونات النبلاء). وانتقل من أمريكا الجنوبية مع رحيل الأرستقراطيين وعبيدهم الذين تبعوا البلاط البرتغالي سنة 1807 الهاربين من القوات النابليونية إلى ريو دي جانيرو، ثم انتقال بعد ذلك إلى البرتغال ... على أن البعض يصرّح بأن الفادو هو في أصله أغاني البحّارة البرتغاليين الذين كانوا يتنقلون بين الموانيء تاركين وراءهم أحبتهم ... وعلى كلّ، فتسمية الفادو مشتقة من كلمة (فاتوم) fatum اللاتينية وتعني "مصير"، وهذه أصلها من الفعل (فاري) fari الذي يعني "القَوْل كمرادف للبَوْح". فالفادو من الفعل البرتغالي (فَدار) fadar والذي يعني "هَيَّأ". وبالرغم من كون مؤلفيه من الرجال، فقد تميز هذا الغناء بكونه غناءا نسائيا بامتياز إلا أن الرجال بدأوا يتعاطونه كمغنين ... وهو ما نلاحظه أيضا في فن الملحون المغربي الذي أصبحت الفنانات من بين حفّاظه ومغنيه.
- شعر اللانداي بأفغانستان، وهو نوع من الشعر الشعبيّ المنظوم (والمغنّى أحيانًا)، باللغة الباشتونيّة ، وفق قواعد خاصّة من الوزن الشعريّ والتقفية. وتعني كلمة اللانداي في لغة البشتون "الثعبان الصغير السام"، وفي الشعر تشير إلى "القصير" أو "الموجز"؛ إذ يأتي على شكل سطرين شعريّين فقط. إن قصائد النساء الأفغانيات هي سيوف مزروعة في القلب. إنه تقليد ! فهذا الشعر الباشتوني تحوّل إلى أداة للتمرد مع الحروب التي عرفها المجتمع الأفغاني والتي كانت ضحيها المرأة أساسا؛ حيث أصبح اللانداي شائعا جدا، فصياغته في بيتين اثنين جعلته سهلا للحفظ والانتشار والقراءة، والإنشاد إلا أنه لكونه ظل شعرا نسائيا بامتياز ظل محاربا من طرف المجتمع الذكوري المحافظ. لكن النساء الأفغانيات استأنفن استخدام هذه القصائد دفاعا عن أنفسهن دون الرغبة

---

[2] يرى المستعرب الإسباني خوليان ريبيرا إي طرّاكو Julián Ribera y Tarragó منذ 1928، أن كلمة trobar ومشتقاتها تعود إلى أصل عربي - على الأقل في استخدامها المتخصص في معاني "تأليف أبيات شعرية، غناء، وما إلى ذلك" - وهو الطّرَب والذي يعني الغناء والإنشاد. وهو من الجذر الثلاثي (ط.ر.ب. T٩-R-B) أي "أثار عاطفة الانفعال والإثارة، لعب الموسيقى، والتسلي بأغنية ".

[3] انظر على سبيل المثال لا الحصر :

Bec Pierre, « Trobairitz » et chansons de femme. Contribution à la connaissance du lyrisme féminin au moyen âge. In: Cahiers de civilisation médiévale, 22e année (n°87), Juillet-septembre 1979. pp. 235-262. http://www.persee.fr/doc/ccmed_0007-9731_1979_num_22_87_2112

في نفث سمومهن. إنه لغة قلوبهن والرغبة النابعة من أحشائهن والتي تشير إلى جرأتهن وشجاعتهن مخاطرات بحياتهن. إن اللانداي يتحدث تقليديا عن الحب والحزن. وغالبا ما يسخر من الزواج القسري مع فكاهة ساخرة متعالية من شيخوخة الأزواج والذين لا ينفعون في شيء؛ إذ غالبا ما يشار إليهم باعتبارهم "مسوخ صغيرة".

2) موضوع النشاط :

من خلال هذه الأمثلة وغيرها، يبدو لنا كيف أن المرأة تعرضت على مر التاريخ وفي مختلف المجتمعات للتهميش والتعنيف ليس المادي منه فقط بل وكذلك العنف الرمزي في مختلف أشكاله وتجلياته إلى حد تحويل الخصائص caractéristiques النسائية إلى خصوصانية Spécificité وجودية[4] تضع المرأة بمختلف أبعادها وفي مختلف الميادين والمجالات ككائن اجتماعي في مرتبة أدنى من الرجل لا قيمة لها ولا لأنوثتها إلا وفق مرجعية ذكورية؛ حيث يتم النظر إليها وتمثلها في علاقة بالرجل، من قبيل : أم ، زوجة، بنت، خالة، الخ. ولا يعتد بكينونتها بما هي كذلك : "امرأة" !

وهذا ما دفعها في إطار مواجهة كل هذه الأنواع من العنف والعسف للتحرك من أجل الاعتراف بإنسانيتها وكينونتها إلى إبداع أشكال مقاومة تتسم بالحذق والمهارة والذكاء الذي قد يتماهى في المجال الشعبي مع الدهاء. وتبين الأمثلة السابقة هذا الأمر.

وفي هذا السياق نروم في هذا النشاط إلى تناول التبراع كممارسة فنية نسائية مقاوِمَة تهدف إلى الانتصار لحق المرأة في التغني بالجمال لا أنت تكون موضوعا له فقط. فالتبراع كممارسة فنية نسائية يمكن أن نعالجه كشكل من أشكال مواجهة العنف الرمزي الذكوري الذي يختزل المرأة في أنوثتها ولا يعترف لها بما يحق للذّكَر عموما.

ففن التبراع كشعر نسائي – مثل باقي الممارسات الفنية والثقافية النسائية في مختلف المجتمعات وعلى مر العصور – يكشف لنا عن شخصية المرأة-الأنثى صنو الرجل-الذكر، والتي وإن افتقدت سبل الخلاص من تراتبية مجتمعية قائمة على التوزيع الجنسي للأدوار وتقسيم العمل؛ فإنها تجد في هذا الفن فرصة للانتصار لذاتها و فضاء للاستمتاع بما هي ممنوعة منها ... إنه فرصة للتخفيف من قيود الحياة المحافظة الرتيبة ومن المعاناة النفسية والعاطفية ... إنه طريقة شاعرية في مقاومة العنف بالشعر بما هو كذلك.

وسنتناول في هذا المطاف المحاور التالية :

- الخصائص الفنية والتعبيرية في التبراع كمكون من الثقافة المغربية برافدها الحساني
- التبراع بين الانتصار للمرأة-الأنثى والاعتراف بالحق في التعبير عن المشاعر والعواطف الإنسانية
- التبراع كممارسة جيدة في النهوض بحق المرأة في التعبير عن ذاتها

3) صاحبا المشروع :

عبد الفتاح الزين رئيس فضاء الوساطة الهاتف : 0672167571 البريد الإلكتروني : abdelfattahezzine@hotmail.com	

[4] انظر في هذا الصدد على سبيل المثال :
Anouar Abdel-malek, Le concept de spécificité : positions. Revue L'Homme et la société, Paris, année 1975, PP. 25-33. http://www.persee.fr/doc/homso_0018-4306_1975_num_37_1_1597

4) إطار التظاهرة :

ستنعقد التظاهرة يوم الخميس 8 مارس 2018 بمناسبة باليوم العالمي للمرأة تحت شعار "التبراع : مواجهة شاعرية للعنف الذكوري".

والهدف من هذه التظاهرة هو وضع مشروع بحث-عملي recherche-action في إطار الوساطة الثقافية من خلال التعريف ببعض أوجه الإبداع التي لا زال يحافظ عليها المجتمع من أجل النهوض بها في إطار هندسة ثقافية تقوم على الاعتراف بحقوق المهمشين وجعل مختلف التعبيرات الثقافية والفنية خاصة ما منها بكونه ممارسة جيدة كرافعة للاندماج الاجتماعي والرفع من مستوى المشاركة المواطِنَة لدى الأفراد (والنساء على رأسهم)، ومن جودة العيش المشترك بين مختلف مكونات المجتمع مع استثمار التنوع والتعدد الثقافي في احترام تام للاختلاف على كافة المستويات والأصعدة. كما أننا نروم من خلال كل هذا إلى التعريف بالثقافة الحسانية والنهوض بها كرافد من روافد الثقافة المغربية.

5) امتدادات الموضوع :

كما تمت الإشارة، ستكون هذه التظاهرة فرصة لتطوير موضوعها كفرصة لوضع مشاريع بحثية والتي ستنطلق بالنظر إلى نتائجها أوراش في ميدان "الاقتصاد الإبداعي" للنهوض بالفنون عموما والنسائية منها على الخصوص ناهيك عن الترافع حول هذه الممارسة الإبداعية كممارسة جيدة - مهمّشة ومهددة بالانقراض - في النهوض بالحقوق النسائية إلى جانب بحث جدوى تسجيل هذا الموروث الشفهي الحسّاني كتراث إنساني لامادي ضمن لوائح اليونيسكو.

6) الشركاء والمحتضنون الذين تم الاتصال بهم :

- وزارة الثقافة
- هيئة الأمم المتحدة للمرأة – مكتب المغرب ONU-Women
- اليونيسكو – مكتب المغرب